قدوة الأماثل الكرام

وكان من بين الرسائل التي أرسلها الباشا إلى المبعوثين، رسالة أملاها على سكرتيره ديوان أفندي في حضور لاظ بك حيث قال فيها:

"قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم، ننهي إليكم أنه قد وصلت إلينا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة، لم يُفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة."

وكان لاظ بك يتابع متعجبًا من صبر الباشا، وتفرغه التام لمناقشة حملة التقارير في جميع التفاصيل والدرجات، خاصةً إذا كانت النتائج غير واضحة، مما يؤكد اهتمام الباشا البالغ بهذه البعثات التي كان يعتمد عليها في تكوين دولته الكبرى، ومن البعثات التي أرسلها محمد علي إلى فرنسا بعثة مشهورة باسم بعثة الأنجال، لأنها كانت تضم عددًا من أبناءه وأحفاده، ومنهم الأمير اسماعيل ابن ابراهيم باشا، والذي عاد متأثرًا بكل ما هو فرنسي. ويُذَكِّر لاظ بك الباشا بأول بعثة تم إرسالها إلى فرنسا، فيقول:

– هل تذكر يا أفندينا عندما طلبت من شيخ الجامع الأزهر أن ينتخب من علماء الأزهر إمامًا للبعثة الأولى يرى فيه الأهلية واللياقة، فاختار الشيخ رفاعة الطهطاوي لتلك الوظيفة.

– أجل يا لاظ أتذكر ذلك جيدًا، وقد استطاع الشيخ رفاعة يا لاظ أن يغترف من مناهل العلم في فرنسا، كما تعلم اللغة الفرنسية ودرس الآداب الفرنسية.

– لقد تأثر هذا الشيخ يا أفندينا بمفكري فرنسا، وبُهِر انبهارًا شديدًا بالحضارة الغربية، وتعجب كيف وصل هؤلاء إلى هذه المستويات العلمية الراقية.

– أجل يا لاظ بك، بل إنه قد قام بترجمة عدة كتب إلى اللغة العربية.

وكان الشيخ رفاعة الطهطاوي الذي أرسله الباشا لإمامة البعثة في الصلاة، قد تجاوز مهمته كثيرًا وتعلم الفرنسية، وقرأ مؤلفات مفكري عصر النهضة الأوروبية، مثل فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وراسين. وعندما عاد كان يناقش مشايخ الأزهر من زملاءه السابقين في هذه الأفكار، فعندما سأله يومًا الشيخ العطار عن أهم ما يميز مفكري أوروبا رد عليه قائلًا:

– إنهم متحررون من تعاليم الأديان السماوية، واعتمدوا على العقل فقط في صياغة منهج الحياة في أوروبا، فاعتبروا أن الإنسان هو سيد هذا الكون، وله أن يخطط حياته بتحكيم عقله فقط.

– وما السبب في ذلك يا رفاعة بك؟

- لقد كان سبب ذلك هو رد فعلهم العنيف على سيطرة رجال الدين في العصور الوسطى، والتي كانت تُحرِّم العلم والبحث العلمي والتفكير عمومًا، وكانت لفترة كبيرة سببًا في تخلف أوروبا عن العالم كله، في الوقت الذي كانت فيه الأمة الإسلامية على أعلى مستوى من التقدم العلمي في جميع المجالات، لأن الدين الإسلامي لا يعوق العلم والبحث العلمي.

- أجل بالتأكيد يا رفاعة بك، ذلك أن الإسلام قد تميز بأنه دين لا يقوم بغير دنيا، وشريعة لا تكتمل إلا في مجتمع ووطن ونظام وعمران، فكثير من فرائضه الكفائية والاجتماعية لا تقام إذا نحن اكتفينا بالمساجد والمحاريب، فالعلم بالإسلام يقتضي ويستوجب تحصيل العلم المدني الشرعي، وفريضة على الأمة الإسلامية إقامة مؤسسات العلم، التي بدونها لا تكتمل إقامة الدين، وإذا كنا مكلفين بإقامة الدين، فإن إقامة كامل الإسلام لا تتأتي إلا في مجتمع مستكمل لشرائط العمران، المادية منها والروحية والأدبية، بل إن إقامة الشعائر والمناسك والعبادات على النحو الأمثل، وفي حضور قلبي يجعلها خالصة لله، لا يتأتى إلا إذا انتظمت شئون الدنيا، وتحققت شروط الأمن المادي والمعنوي للعابدين العاكفين الراكعين الساجدين، وذلك حتى يتمكنوا من إفراد المعبود بالعبادة، واستخلاص القلوب العابدة من المعوقات الدنيوية التي تحول دون الحضور في العبادات.

ومما يؤكد تأثر الشيخ رفاعة بالأفكار الأوروبية، هو فشل الحملة الفرنسية في نقل الأفكار الأوروبية إلى الشعب المصري، بينما نجح في ذلك الشيخ رفاعة الذي أصبح رفاعة بك، فلو دققنا في طبيعة السنوات الأربع التي تلت الحملة الفرنسية، فلن نجد أثرًا واحدًا يدل على تغلغل الأفكار الأوروبية بين المصريين، ولن نسمع عن فولتير أو روسو أو موليير أو نظم الانتخابات والعقد الاجتماعي وإرادة الأمة، إلا بعد أن يعود الشيخ رفاعة الطهطاوي من رحلته إلى باريس في عام ١٨٣١م، أي بعد ثلاثين عامًا بالتمام والكمال من رحيل الحملة. ويمكن اعتبار أن عصر محمد علي كان بمثابة بداية لحملة فرنسية جديدة على مصر، ولكنها حملة ثقافية، فهي استكمال للحملة العسكرية التي شنها نابليون على مصر، فقد كان هناك خبراء في عدة مجالات من فرنسا في مصر، كما كان هناك مبعوثون من مصر إلى فرنسا، ولم تكن العلوم الطبيعية فقط هي التي يتم نقلها، ولكن كانت عملية تغيير الأفكار بشكل واضح، مما يؤثر على بعض الثوابت الراسخة. وقد ألف الشيخ رفاعة كتابًا شهيرًا يصف فيه عاصمة فرنسا بعنوان "تخليص الإبريز في وصف باريس" والذي ميز فيه بين "الوضعية الغربية" اللادينية، وبين "علوم التمدن المدني" الموضوعية والمحايدة، فقال عن باريس وبلاد الفرنجة:

أيوجـــد مثل باريس ديار شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح أمـا هـــذا وحقكم عجيب

ويستكمل الشيخ رفاعة الطهطاوي أو رفاعة بك وصفه لباريس فيقول:

"فهذه المدينة، كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية، إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، إذ لا يتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المُحَسِّنة والمُقَبِّحة بالعقل، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك فهو لا يصدق شيئا مما في كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية، والذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينا وتقبيحًا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود، فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة، ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد، ولا ينافي في المتجددات المستحسنة التي يخترعها من منحهم الله تعالى العقل وألهمهم الصناعة.".

ولقد كان الخبراء الفرنسيون والمبعوثون المصريون القادمون من فرنسا في عهد محمد علي باشا، بمثابة حملة فرنسية جديدة على مصر، ولكنها بدون سلاح، فهي حملة ثقافية فكرية بحتة، تقوم بتغيير الأفكار وهز الثوابت في الوقت نفسه الذي تنشر فيه العلوم الطبيعية والتقدم، فلم يكن تقدم بلا ثمن، ولم يكن الباشا بالطبع يريد من أوروبا الأفكار الفلسفية

وأنظمة الحكم، بل كان يريد العلم الذي يدير به عجلة الإنتاج، ليؤسس مجتمعًا حديثًا، ولكنك لا تستطيع أن تنقل علمًا دون آخر، أو أن تتحكم في تدفق أفكار الغرب كلها، أو أن تمنع مبعوثيك من الانبهار، ولقد تقبل الشعب من محمد علي ما لم يتقبله من نابليون لأنه حاكم مسلم. وبالطبع لم يتطرق حديث الباشا مع لاظ بك عن رفاعة الطهطاوي إلى هذه الأمور، ولكن كان حديثهما يتناول ذكريات الباشا عن البعثات بشكل عام، وما أحدثته في مصر من ازدهار في كافة المجالات.